أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول: بهيج عثمان
رئيس التحرير: الدكتور سهيل ادريس

Directeur BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ĀDĀB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. 24502

العدد الثامن
آب (اغسطس) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 8 - Aout 1954
2ème Année

الشبابُ ثروةٌ وثورة

بقلم ميخائيل نعيمه

كتبتْ إليّ صحيفة عراقية تطلب كلمة توجيهٍ مني الى الشباب العربي. فأجبتها بما يلي:

« ليس الشباب في حاجة الى من يوجّهه. فالقوى الهائلة التي يزخر بها كيانه هي الكفيلة بتوجيهه في السبيل المعدّ له. وإنما حاجة الشباب الى من يحميه من موجّهيه الذين يحاولون ابداً ان يكمّوا فاه، ويكبّلوا يديه ورجليه، ويسكبوا الماء البارد على الحماسة المتأججة في صدره، ويزرعوا الذعر والخنوع في فكره وقلبه. اولئك، في الغالب، هم رجال السياسة، ورجال الدين، والآباء والأمهات، والمعلمون والمعلمات الذين يعيشون في قلق دائم من ثورة الشباب على ما ورثّ من تقاليدهم، وما بلي من اساليبهم، وما تعفّن من معتقداتهم. ولذلك لا ينفكون يقيمون السدود والحواجز في وجه تفتّح الشباب وانطلاقه. وهم إذ يفعلون ذلك لا يدركون الى أي حدّ يجرمون بحق انفسهم وحق الشباب.

فمثلما لا خير في ارضٍ ربيعها خريف او شتاء كذلك لا خير في امّة شبابها كهولة او شيخوخة. وإنه لمن الاثم الذي لا يُغتفر ان نمسك على الشباب حرية الافصاح عما في كيانه من قوىً تتحفز للوثوب، فنجعله يدبّ حيث يستطيع ان يطير، ونجعله يتردد حيث يطلب الانطلاق. فالشباب ربيعنا، ومن حقنا ان ننعم به متفجراً من اعماقنا كما ننعم بالربيع متفجراً من احشاء الأرض، فلا نحوّل ورده قطرباً، وياسمينه عوسجاً، وبلابله غرباناً، ونسوره بوماً. وذلك ما نفعله بالتمام عندما نحرم الشباب حرية التعبير عن نفسه إن بالقول وإن بالفعل؛ ثم نحصره في قوالب صلبةٍ، قاسية لا تلبث ان تضيق به فتنشقق وتتطاير شظايا تدميه وتدمينا بالسواء. وقد تهلكه وتهلكنا. »

تلك هي الكلمة التي بعثت بها الى الصحيفة العراقية وهي، كما ترى، مقتضبة كل الاقتضاب. تنقر باب الموضوع ولا تلجه. وإن هي ولجته فلتتناوله بلمحةٍ خاطفة لا تنقع غليل الشباب ولا غليلي. فمن حق الشباب علي، وعلينا اجمعين إذا نحن تحدثنا عنه ان نتحدث بخشوع العابد ورهبة الواقف امام سر عظيم. وأي سر أعظم من سر التجدد الأبدي الصاعد بنا جيلاً بعد جيل، وعلى مدى الدهر، من الحيوان فينا الى الانسان، ومن الانسان الى ما فوق الانسان — الى الله؟ ذلك هو التجدد الذي لولاه لكنا ما نزال حتى اليوم في المغاور والكهوف، ولما كانت لنا هذه المدنيات والحضارات نشيدها ثم نهدمها، ثم نشيدها ثم نهدمها، الى ان نبلغ بها الغاية التي من اجلها وُجدنا واليها نسعى في كل لحظة من وجودنا، عن وعيٍ منا وعن غير وعي — وأعني معرفة كل شيء والقدرة على كل شيء. ونحن مدينون بهذا التجدد للشباب اولاً وآخراً.

وانا إذ أعزو شرف التجدد ومجده وجماله الى الشباب دون غيره من ادوار الحياة، فلست اقصد ان أقللَ من شأن الطفولة والصبا، والكهولة والشيخوخة في بنيان الحياة البشرية. ولكن شأن هذه دون شأن الشباب بكثير. لان الشباب هو المتن، وتلك مقدماته وحواشيه وخواتيمه. هو النور وهي الظل. هو الدور الذي فيه تستكمل الحياة البشرية جميع

معدّاتها ومقوّماتها من ذخائر جسدانية وروحانية . فاللحم والدم يزخران بالحرارة والحركة . والعقل في ثورة على كل مجهول . والخيال نشيط ووثاب . والقلب في عطش قتال وجوع مضنك الى الحب والعدل والحرية . والارادة صلبة ، قحّامة . والايمان بالنفس وقدرتها على مغالبة الصعاب قويّ ، وطيد .

لعل اكبر عقبة في طريق الناس الى التجدد والتقدم هي انهم يألفون على التمادي نمطاً من العيش الى حد ان يعتبروه غير قابل للتغيير والتحسين . بل إلى حد ان يعتبروا كل تغيير فيه خروجاً على النظام وتصدعاً في بنيان حياتهم ، وبالتالي خطراً جسيماً على راحتهم وبقائهم . فحالهم من هذا القبيل هي حال العصفور يألف قفصه ، والبهيمة زريبتها ، والنحلة خليتها . ذلك هو شأن الجماهير في كل زمان ومكان . ولولا قلة من الناس تتطلع ابداً الى ابعد من عيدان أقفاصها ، وسياجات زرائبها ، ونخاريب خلاياها لما خطت البشرية خطوة واحدة الى الامام .

تلك القلة هي ، في الغالب ، من صفوف الشباب الذي يطل على الحياة بعينين ما اختطف بريقها الملل من تكرار المشاهد ، وبفكر ما كبّلته التقاليد ، وبعزيمة ما أنهكتها المعارك ولا شلها الخوف من الفشل والهزيمة .

إن ثروة الشباب هي في صفاء بصره وبصيرته ، وفي مضاء عزيمته ، وفي ثورته على الركود والجمود ، وعلى القيود والسدود . وهذه الصفات هي التي تميز الشباب من غير الشباب ، والتي لولاها لما جرى مركب في بحر ، ولا دار دولاب في بر ، ولا اشتعلت نارٌ في دار ، ولا خاطت إبرة ثوباً ، ولا شيد حجر فوق حجر ، ولا كان حرف وكان كتاب ، ولا انطلق لنا جناح في الفضاء ، ولا أضاء لنا سراج في ظلمة ، ولا امتد لنا صوت عبر القارات والمحيطات ، ولا كان لنا اي علم او فن او دين او نظام ، ولا اي شيء من الاشياء التي بها نعيش ومنها تألفت مدنياتنا الغابرة وتتألف الحاضرة ، وستتألف التي بعدها .

وصفات الشباب هذه لا يندر ان تجدها في بعض الكهول والشيوخ الذين كان العمر وأثقاله أضعف من ان تسدل الغشاوات الكثيفة على ابصارهم وبصائرهم . فما ألفوا قيودهم ، ولا انكمشوا ضمن حدودهم وسدودهم ، ولا تخلوا عن طموحهم في تغيير حال هم فيها الى حال افضل منها . اولئك هم الكهول والشيوخ الذين ما برحوا شباناً بأفكارهم وقلوبهم . فهم بركة واي بركة للناس اجمعين . إلا انهم ، وإن قاموا بقسط من تجديد البشرية ، فالقسط الاكبر يقوم به الشباب من غيرشك .

ولان القديم يكتسب شيئاً من الروعة والقدسية لمجرّد قِدمه ، ولان المألوف يتحصن في قلوب الناس وافكارهم لمجرد انه مألوف ، ولا يكلف الناس كبير عناء في مسايرته على حد قول المثل العامي : « نحس تعرفه خير من جيد تتعرف عليه » — لذلك كان التجدد — ايّ تجدد — ضرباً من الثورة . ولذلك كانت الثورة في دم الشباب الذي يأبى إلا التجدد . ولولا تصلّب القديم وتعنت المألوف لما كانت الثورات من اي نوع كان . ولكن القديم يرسل جذوره بعيداً في تربة الحياة البشرية فيتعذر اقتلاعه إلا بمشقة بالغة . والمألوف يقبض على قلوب الناس وافكارهم ولا قبضة الاخطبوط ، فيصعب التخلص منه بغير الكثير من الالم .

لو أن الناس كانوا أكثر أتعاظاً بدروس ماضيهم ، وأعمق تفهماً لواقع حياتهم لجعلوا قديمهم ومألوفهم من المرونة والطواعية لمتطلبات التطور بحيث يتفادون الثورات وجميع ما يرافقها من عنف ومن آلام جسدانية وروحية هائلة . إلا انهم بماضيهم لا يتعظون ، ولواقع حياتهم لا يفهمون ، وبعيون حسيرة وقلوب واجمة الى مستقبلهم يتطلعون . ولذلك تراهم يتكالبون على كبح جماح شبابهم ، وعلى إقامة الحدود والسدود في وجه قوى التجدد التي تجيش في داخله وتتحفز للانطلاق . أما النتيجة المحتمة فالثورة التي قد تكون دموية وقد لا تكون . ولكنها في الحالتين تسبّب آلاماً على قدر ما تلاقي من معاندة .

أي دينٍ قام في الأرض ولم يكن ثورة على دين قبله ؟ أي علم ترعرع بين الناس ولم يكن ثورة على جهلٍ ألفه الناس فأحبوه واستسلموا له ؟ أي فن شق طريقه في دنيا الفنون من غير ان يشق اثلاماً من الكدر والامتعاض في قلوب الذين ألفوا غيره وما ألفوه ؟ كل اختراع ثورة ، كل اكتشاف ثورة ، كل فكرة جديدة ثورة ، كل زي جديد إن في اللباس ، وإن في المأكل والمشرب والمأوى ، وإن في اللغة والأدب ، وإن في الصناعة والتجارة ، او في الدراسة والعبادة ، او في التقاليد والنظم السائدة — ثورة . وهذه الثورات هي التي بها تتجدد الحياة من يومٍ ليوم ، ومن جيل لجيل . والشباب هو الذي يرفع ألويتها ، ويمشي في طليعتها غير مبالٍ بما يقدمه في سبيلها

من تضحيات غاليات . فلا ماله ، ولا جماله ، حتى ولا دمه بأعز لديه من الهدف الذي يسعى اليه ، ومن المثل الأعلى الذي اتخذه لنفسه رائداً وإماما .

فما أجهلنا نحاول ان نخنق ثورات الشباب وهي ما تزال أجنّة ! فلا يرتفع صوت الشباب ضد ظلامة من مظالمنا ، او ضد تقليد من تقاليدنا ، او طقس من طقوسنا ، او عقيدة من عقائدنا ، او نمط من انماط معيشتنا حتى ننادي بالويل والثبور ، وتعترينا رجفة من سوء المصير . كذلك نادى الكتبة والفريسيون عندما طرقت مسامعهم كرازة المسيح . وكذلك نادى القرشيون عندما قام محمد بدعوته . وكذلك نادى اهل اثينا عندما راح سقراط ينشر افكاره في الناس . وكذلك نادى رجال الدين في الأجيال الوسطى عندما قال قائل إن الارض تدور . ولو شئت ان اعدد الامثلة التي قامت فيها قيامة المحافظين على كل مجدّد في الأرض لما انتهيت .

إلا ان ما كان جديداً في الأمس اصبح اليوم قديماً . وبتنا نسمع اصواتاً تتعالى من هنا وهناك طالبةً تجديده . ونسمع مع هذه الأصوات أخرى تهدر وتزمجر مطالبة بإبقاء القديم على قدمه . فهو من القداسة والكمال بحيث لا يمكن لأي إنسان ان يطاله بقلم او بلسان . واني لأسألكم : أي المنطق هو منطق هؤلاء الغيارى على القديم ، والقائلين بقدسيته وعصمته ؟ وهل يرضون لو تعود بهم الحياة القهقرى الى حيث كان اسلافهم منذ آلاف آلاف الأجيال ؟ ام تراهم يعتقدون ان ما لديهم من تقاليد وطقوس ومعتقدات هو غاية الغايات ونهاية النهايات فلا زيادة بعده لمستزيد ؟ وإذن فما شغلنا على الأرض من الآن وإلى الأبد إذا لم يكن لنا من امل في ان نجدّد ونتجدد ، وأن نبلغ من المعرفة والمقدرة والحرية ولو قيراطاً فوق ما بلغناه حتى اليوم ؟

إننا نتوارث التقاليد والنظم والعوائد والعقائد جيلاً عن جيل . والتقاليد والنظم والعوائد والعقائد الموروثة من شأنها ان تتحجر وتعفن وتنقلب تعصباً وكرهاً في فكر الوارث وقلبه ما لم يهضمها وجدانه ويجعلها دماً من دمه ولحماً من لحمه . وإذ ذاك فمن حقه ان يتناولها بالفحص والتمحيص ، وبالشك والتجريح حتى اذا استساغها تمسّك بها . واذا لم يستسغها راح يفتش له عن اخرى يستسيغها . فالايمان بالله ، مثلاً — وبغير الله — لا يصح ان ينتقل بالوراثة كما ينتقل المال والمتاع والعقار . فهو عملية باطنية وصلة ذاتية بين المؤمن والمؤمن به . والشك باب الايمان . ومن حقنا ان نشك في ما ورثناه عن اسلافنا . ومن حق شبابنا ان يشك في ما ورثه عنا .

لذلك اقول إنه من العار علينا ان ننادي بالويل والثبور كلما تصدى شبابنا لعقيدة من عقائدنا ، او تقليد من تقاليدنا بكلمة او بحركة او بشك . وكان اجدى لنا الف ألف مرة ان نطلق له الحرية ، ثم ان نحاول اقناعه بدلاً من ان نضع شكيمة في فمه او ان نحطم قلمه . فالحق في غنى عن دفاعنا اذا كنا على حق . واذا كنا على ضلال فمرحباً بالشك منجياً من الضلال .

ونحن اليوم في دنيا العرب أحوج ما نكون الى شباب يجرؤ على ان يشك ، ثم يجرؤ على ان يعمل للخلاص من شكه . فالشك إذا طال أمسى شللاً . وشبابنا هو الثروة التي اين منها ذهبنا الاسود والاصفر وكل ما تنتجه أرضنا من ثمار وحبوب وبقول ؟ هذه للنفاد والبوار ، وتلك للبقاء والازدهار . وحريّ بنا ان نستثمر هذه الثروة الى اقصى حد ، فنتاجر بها قبل ان نتاجر بالبترول ، وبالحام والشيت ، ونوليها من عنايتنا أضعاف أضعاف ما نوليه الدوالي في كرومنا ، والسنابل في حقولنا ، والاموال في مصارفنا ، والكراسي في مجالسنا . ولا نقضي عليها بما نفرضه على الشباب من قيود وما نقيمه في وجهه من سدود ، بل نطلق للشباب حرية القول وحرية العمل إذا نحن شئنا ان ننعم بمواهبه وبركاته ، وان نتفادى غضباته وثوراته .

ولا يقولنّ قائل إن تلك الحرية قد تؤدي بنا الى الفوضى . فالفوضى هي ما نحن فيه . ولن يخرجنا منها إلا الشباب المجدد والمتجدّد . ويقيني ان ما في دم شبابنا من حرارة ، وما في عقله من اتزان ، وما في قلبه من إيمان بالعدل والنظام والاخاء والحرية لكفيل بان يقطع بنا شوطاً بعيداً نحو عالم ألطف جواً ، وافسح أفقاً ، واعذب صوتاً من عالم نعيش فيه الآن . فليس كالشباب خزانة نأتمنها على آمالنا . وليس كالشباب مجدداً لشباب الحياة . وليس كالحرية غذاء للشباب وحافزاً له على الخلق والابداع والسير بالقافلة الى الواحات المطمئنة والمراعي الخصبة .

ميخائيل نعيمه